من روائع عصر الأحياء

٢ ـ قصص الأيام العشرة

بقلم جوفانى بوكاشيو

للأستاذ محمد عبد الله عنان

بقية ما نشر فى العدد الماضى

يستطيع أولئك الذين قرأوا قصص بوكاشيو وألف ليلة وليلة ، أن يجدوا بعض نواحى الشبه بين الأثرين ، سواء فى المادة أو الروح ؛ ذلك أن قصص الأيام العشرة تفيض كقصص ألف ليلة وليلة بروح مادية قوامها السرور والمرح ، والتوفر على استمراء متاع هذه الحياة بأى الوسائل ؛ وتفيض أيضا كألف ليلة وليلة بالمواقف الغرامية المدهشة المثيرة ، أو المبتذلة أحياناً ؛ ثم إن كلا الأثرين يرمى إلى غاية واحدة تقريباً ، وهى مجالدة النوائب والنسيان والسلوى ؛ ففى ألف ليلة وليلة نجد ملكا نكب بخيانة زوجه ، وانقلب إلى بغض النساء ، يقسرى فى كل ليلة بكرا ثم يقتلها فى صباح اليوم الثانى ، إلى أن يبعث اليه وزيره بابنته « شهر زاد » ، فتحتال لتسليته الملك وتحويله عن فكرة الثأر من النساء ، وانقاذ نفسها وبنات جنسها ، بأن تقص عليه فى كل ليلة طرفاً من القصص الشائق حتى ألف ليلة وليلة ؛ وفى الأيام العشرة نجد عشر سيدات وسادة يجتمعون أثناء الوباء المروع للترويح عن أنفسهم وتناسى ويلات الفناء والموت ، بتبادل القصص الممتع

ولا نعنى بذلك أن جوفانى بوكاشيو قد تأثر فى كتابة قصصه بألف ليلة وليلة ؛ ذلك أن هذه القصص الشهيرة لم تكن قد عرفت فى الغرب فى عصره ؛ ولكنا نريد أن نقول فقط إنه يوجد بين الأثرين تماثل فى الروح والطابع والغاية يرجع إلى تماثل فى روح العصور الوسطى وفى روح مجتمعاتها

على أنه إذا كانت قصص ألف ليلة تمتاز أحياناً بخيالها المبدع ، وفنها الممتع ، وصورها الوصفية والاجتماعية الشائقة ، فان قصص الأيام العشرة تفوقها من الناحية الفنية فى مواطن كثيرة ، وتمتاز بالأخص بعبرها ومغازيها الدقيقة ، وصورها الفكهة اللاذعة ، ومع أنها تمتاز أيضاً بكثير من التنوع والتباين فى التصوير والوصف ، فانها تمتاز فى نفس الوقت بطابع من التناسق الممتع فى الروح والأسلوب والتعبير

وقد رجع بوكاشيو فى كتابة قصصه إلى مادة غزيرة من القصص القديم وقصص العصور الوسطى ، وإلى بعض الحوادث الواقعية التى شهدها ، وإلى بعض حوادث حياته ذاتها ؛ ويرى بعض النقدة أن الفتيان الثلاثة الذين اتخذهم بوكاشيو أبطالاً لثلاثة من الأيام العشرة ، انما يمثلون ثلاث مراحل مختلفة من حياة بوكاشيو نفسه ، وأن فى قصصهم كثيراً مما اشتق من حياة بوكاشيو ذاتها

وبدأ بوكاشيو كتابة قصصه كما قدمنا ، أيام عصف الوباء بمدينة فلورنس فى ربيع سنة ١٣٤٨ ، وأنجز الثلاثة أيام الأولى منها فى مايو سنة ١٣٤٩ ، وهو يومئذ بنابل ، كما يستدل من خطاب الاهداء الذى يوجهه عن هذا القسم إلى صديقه الساندرو دى باردى التاجر الفلورنسى ، وكان يقيم يومئذ فى جايتا ؛ وانتهى من كتابة مؤلفه فى سنة ١٣٥٣ ، أعنى بخمسة أعوام من البدء فيه ؛ وظهرت الطبعة الأولى من هذه المجموعة الخالدة فى سنة ١٤٩٢

* * *

وقصص الأيام العشرة تجرى حوادثها فى جميع المدن الأيطالية وفى بلاد بعيدة أخرى مثل البرتغال أو انكلترا والاسكندرية وآسيا الصغرى ؛ وقد اختصت فلورنس موطن المؤلف ، وكذلك نابل حيث عاش بوكاشيو مدى حين ، بكثير منها ؛ وفى كثير منها نجد صورا ممتعة لمحاسن الطبيعة فى تلك الأرجاء ، ووصفاً شائقاً فكهاً لمجتمعات هذه العصور وخلالها ومثالبها

كذلك تقدم الينا هذه القصص أبطالاً من كل صنف وضرب ؛ فهنالك مجتمع العصور الوسطى بكل طوائفه وشخصياته ، من سادة وفرسان وأحبار وقسس ، وشعراء وفنانين ، وصناع وعمال ولصوص ، ونساء من كل ضرب ؛ وهنالك شخصيات الطبقة العليا من ملوك وأمراء وسادة وملكات وأميرات وسيدات

أنيقات من كل الطبقات ، وهنالك طائفة كبيرة من ملوك وأمراء معينين معاصرين وغير معاصرين

ونجد مثل هذا التباين فى موضوعات القصص ؛ ونلاحظ أولا أن القصص كلها بعيدة عن الاسهاب الممل ، وقد صيغت فى أحجام متقاربة ، من خمس صفحات الى عشرين ؛ بيد أن هذا الايجاز فى الحجم لم يحل دون حسن السبك ، ففى كل قصة فكرة طريفة ، وفى كل نادرة فكهة ، وحادثة مطربة . وهنالك تنوع ظريف فى الحوادث والفكر ؛ بيد أنه يلاحظ أن القصص الغرامية تشغل أكبر حيز وتفوز بأكبر نصيب ، وربما كانت تسعة أعشار المجموعة كلها . وهنا تبدو براعة بوكاشيو وفنه بصورة بارزة ؛ فهذه المجموعة الغرامية الحافلة بعيدة عن التماثل الممل ، وفى كل منها نجد مأساة أو مهزلة غرامية طريفة ؛ وربما صيغ بعضها فى أثواب مغرقة ، وتضمنت فكرا أو مواقف مستحيلة ، ولكنها على العموم تنفث نفث السحر والمتاع

وهذا الأفق الغرامى الساحر هو الذى يسود قصص الأيام العشرة ؛ وهنا يبدو بوكاشيو فى ذروة فنه وسحره ؛ فالحب هو قوام المجتمع ، وهو متاع الحياة ، والحب عند المرأة والرجل معا بكثير من البراعة والعزم والخيانة والشجاعة والكرم ، والاقدام والغدر ؛ وفى أحيان كثيرة يمزج بوكاشيو المأساة بالهزل والفكاهة ؛ فهنا زوجة خؤون تدبر أن يضرب زوجها فى نفس حديقته من يد حبيبها ، وتحمله على منازلته كعنوان على الاخلاص والحب ؛ وهنا طالب عاشق يسير طول الليل فوق الجليد جيئة وذهابا ، بينما تمدحه الحسناء وحبيبها ياسمين من وراء النافذة ؛ وهذا قس ساذج تستخدمه زوجة عاشقة دون أن يدرى فى توثيق علائقها بحبيبها المنشود وتدبير وسائل التمتع بوصله ؛ وهذه زوجة خبيثة تدبر لحبيبها الوصل فى منزلها وفى فراشها ، بينما زوجها يضرع الى ربه مستغفرا عن ذنوبه فى مكان آخر من الدار ؛ وهذا قس خبيث يفترس فتاة ساذجة تحت ستار الوعظ والهداية ؛ وهذه راهبة مضطرمة تحتال لاقتناص جنان الدير حتى توقعه فى شرك وصالها ، وغير ذلك مما يضيق المقام عن ذكره

ومما يلاحظ بتنوع خاص أن بوكاشيو يحمل على الأحبار والقسس بشدة ، وينوه فى كثير من المواطن بأخلاقهم الفاسدة وشهواتهم الوضيعة ، يسترونها تحت ثيابهم ومظاهر ورعهم الفادرة ؛ واليك كيف يعرض بوكاشيو نظريته فى خبث رجال الدين على لسان بانفيلو أحد الفتيان الثلاثة إذ يقول :

« سيداتى الحسان ، لقد خطر لى أن أقص عليكم حديثاً ضد أولئك الذين يسيئون إلينا دائماً ، دون أن نستطيع نحن الانتقام منهم ؛ وأعنى بذلك رجال الدين الذين أعلنوا حرباً صليبية على زوجاتنا ، والذين إذا ظفروا بواحدة منهن ، تصوروا أنهم قد غنموا غفران الذنب والعقوبة ؛ وفى ذلك يعجز الدنيون عن مقابلتهم بالمثل ، وإن كانوا يصبون جام انتقامهم على أمهات القسس وأخواتهم ، وخليلاتهم ، وبناتهم ، وبطاردونهن بمثل الحماسة التى يطارد بها القسس أزواجهم »

فيجيب زميله فيلوستراتو : « إن الحياة الفاسقة الدنسة التى يحياها رجال الدين ، وهى فى كثير من نواحيها عنوان دائم للخبث ، تقدم بكل سهولة فرصة لذوى العقول ليحملوا عليها ويجرحوها »

ويقدم الينا بوكاشيو مجموعة متباينة من القسس الذين فاضت نفوسهم بأروع صنوف الاجتراء والاثم ، ويصور لنا خبائثهم ودسائسهم وتحيلهم على استباحة الأعراض بكل الوسائل ، واستتارهم فى ذلك باسم الدين ؛ كذلك يقدم الينا طائفة من الراهبات اللائى يضطرمن وراء جدران الدير توقاً وجوى ، ويلتمسن تحقيق شهواتهن بأخس الوسائل ؛ وفى هذه القصص الكنسية يبدو بوكاشيو فى ذروة فنه وسخريته اللاذعة ، ومع أنه يشتد فى حملته على الكنيسة وأحبارها ، فانه يحيط هذه الصورة الخبيثة بكثير من الدعابة والمرح

وقد أثارت هذه القصص الثيرة سخط الكنيسة الكاثوليكية على الكتاب ومؤلفه ، فوضعته فيما بعد فى قائمة الكتب المحظورة ؛ ولكنها لما رأت بعد ذلك أن هذا الحظر لم يحل دون ذيوع الكتاب ، سمحت بظهوره فى القرن السادس عشر فى ثوب مهذب رفع منه القسس والراهبات واستبدلوا فى صلب القصص الأصلية بسيدات وسادة

* * *

وقد كتب بوكاشيو قصصه بكثير من الحرية والبساطة ؛

وإذ كان معظمها يتحدث عن الحب والوصل ، فان مؤلفها لم يحاول تحفظاً فى وصف المناظر والصور ، ولم يحاول تكلفاً فى اللفظ أو التعبير ؛ وعلى ذلك فقد يبدو لنا أن قصص الأيام العشرة تخرج فى كثير من المواطن عن حدود الحياء والحشمة ؛ والواقع أن بوكاشيو يحدثنا عن الحب وعن الوصل ، وعن العلائق والشهوات الجنسية فى كثير من البساطة والصراحة ، ويقدم إلينا هذه الصور الغرامية المضطرمة عارية لا يسترها لفظ أو تحشم ؛ ولكن هل يجوز لنا مع ذلك أن نعتبر قصص بوكاشيو أثراً خليعاً يبعد عن معيار الحياء والحشمة والخلق الرفيع ؟ لقد وجهت هذه التهمة إلى قصص بوكاشيو منذ ظهورها ، وما زالت توجه إليها فى عصرنا ؛ واضطر بوكاشيو نفسه أن يجيب عنها فى خاتمة مجموعته ، وأن يبرىء نفسه من قصد العبث والاسفاف

يقول النقدة ، لقد تحدث بوكاشيو كثيراً عن الحب ، وأسرف فى ملق النساء واسترضائهن ؛ ويجيب بوكاشيو ، ولماذا لا ؟ لقد ملق النساء أذهان عظام مثل جيدو كافالكانتى ودانتى الجيبرى ، وألفوا فى استرضائهن متعة وشرفاً

ويقولون إن بوكاشيو استباح لنفسه وصف المناظر الجنسية المثيرة ، واستعمل ألفاظاً تنبو عن الحياء والحشمة ؛ ويقول بوكاشيو إنه ينكر هذه التهمة ، « لأنه لا يوجد ثمة شىء قبيح يحظر على إنسان ما ، إذا استطاع أن يخرجه فى صيغ مقبولة ، وهذا ما يلوح أنه قد فعل بصورة مرضية »

ويقولون إن هذه القصص تثير فساداً وتحدث ضرراً ؛ ويقول بوكاشيو ، إن كل شىء فى الوجود يمكن أن يحدث الخير والشر ؛ فمن ذا الذى لا يعرف أن النبيذ وهو من أفضل مقومات الصحة ، مضر بالمحمومين ؟ وهل لنا أن نقول إنه ضار لأنه يؤذى المحمومين ؟ ومن ذا الذى لا يعرف أن النار مفيدة بل ضرورية للانسان ؟ وهل لنا أن نقول إنها شر لأنها تحرق الدور والقرى والمدن ؟ كذلك تكفل الأسلحة سعادة أولئك الذين يريدون العيش فى سلام ؛ ولكن الأسلحة كثيرا ما تودى بحياة الناس ، لا لخبث فى ذاتها ، ولكن لخبث أولئك الذين يستعملونها . ثم يقول بوكاشيو : فاذا كان ثمة فى الأيام العشرة قصص مثيرة أو خارجة ، فانه لا ضير من وجودها ، ولم يكن فى وسعى أن أكتب غير ماسمعت ؛ ولا عصمة لانسان ؛ وفى الحقل النضر تنمو الأعشاب الضارة ؛ ولما كنت أقصد أن أحدث فتيات الشعب ، فانه لم يكن ثمة داع للتكلف والبحث عن الصيغ والعبارات المنمقة

هكذا يعتذر بوكاشيو عما عسى أن يبدو فى قصصه من خروج على حدود الحياء والحشمة ؛ بيد أنه مهما كانت الملاحظات التى تبدى فى هذا الشأن ، فانه لا ريب أن قصص بوكاشيو ، تعتبر من أقيم الآثار العالمية وأبدعها وأمتعها

وقد كان لمجموعة الأيام العشرة أعظم الأثر فى تطور النثر الايطالى ، وتطور فن القصص الأوربى بوجه عام ؛ وما زالت آثار بوكاشيو تعتبر الى جانب آثار دانتى وبترارك ، قوام الأحياء الأوربى ، والصرح الأول فى بعثه وازدهاره

(تم البحث — النقل ممنوع)

محمد عبد الله عنان

طبعة جديدة منقحة من كتاب :

الانيس المطرب بزوض القرطاس

فى تاريخ ملوك الغرب ومدينة فاس

تصـــدرها

شركة النشر المغربية

فى ثلاثة أجزاء

تعاليق تضاعف حجم الكتاب — مقابلات مع عدة نسخ مخطوطة ومطبوعة — ضبط الأعلام — زيادات الخ

الجزء الأول فى ٢٠٠ صفحة يصدر فى ٢٥ مايو

ثمن الجزء ١٠ قروش صاغ عدا أجرة البريد

المخابرات مع مندوب الشركة سعيد حجى

سلا (المغرب) Salé (Maroc)